خطبة صلاة الجمعة 28/ 9/ 2018 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(كيف أخدم بلدي؟)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: 13].

وقال سبحانه: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ﴾ [يونس: 83]

قال ابن كثير: هم الشباب.

أخرج الحاكم والبيهقي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «**اغتنم خمساً قبل خمس: شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك**».

هذه هي الخطبة الحادية عشرة في سلسلة (هموم الشباب)

تحدثت الخطب الماضية: لماذا هذه السلسلة، وكيف أترك المعصية، كيف أرضي أبوي، كيف أجد عملا مناسبا، كيف لي بالزواج، ماذا أقرأ لأفهم ديني، وكيف أجمع بين الدنيا والآخرة، كيف أجمع بين الهزل والجد، وكيف أختار تخصصي الجامعي، وكان عنوان خطبة الأسبوع الماضي كيف يلين قلبي.

وعنوان الخطبة: **كيف أخدم بلدي؟**

أيها الإخوة: جبل الإنسان على حب وطنه، ولد فيه ودرج فيه وترعرع فيه وشبّ وشاب فيه، ولقد كانت العرب إذا سافرت –كما ذكر ابن خلدون– حملت معها من تربة بلدها رملاً وعفراً تستنشقه.

أليس لقاء المحب محبوبه وضمه وشمه لوناً من ألوان الشفاء من الأدواء؟

ألم يُشفَ يعقوبُ عليه السلام عندما ألقَوا عليه قميصَ يوسفَ، فضمه وشمه، بل وجد ريحه من بعيد ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ﴾ [يوسف: 94]؟!

يقول الإمام الغزالي: (والبشر يألفون أرضهم على ما بها، وحبُّ الوطن غريزة متأصلة في النفوس، تجعل الإنسان يستريح إلى البقاء فيه، ويحنّ إليه إذا غاب عنه، ويدافع عنه إذا هُوجم، ويغضب له إذا انتقص).

ولئن كان حب الوطن صفةَ الإنسان عامة والعرب خاصة فإن السوريين مشهورون بأنهم من أكثر الناس حنيناً إلى أوطانهم إذا اغتربوا، وإذا اغتنى أحدهم لا يلبث أن يعود، ولهم في تعليقهم ببلدهم حكايا وأخبار تقضي منها العجب.

جاء الإسلام ليعزز في المرء حب وطنه ويوثق في النفس علاقتها بديارها فجعل مغادرة الأوطان قرينة لمغادرة الروح الجسد، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوِ اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ﴾ [النساء: 66]. فقرن بين حب الديار وحب النفس.

وتحدثنا كتب السيرة عن ذاك الموقف الأليم الذي تعرض له رسول الله صلى الله عليه وسلم بمغادرة وطنه وتنقل لنا كلمات الوداع: (ما أطيبك من بلد! وما أحبك إلي! ولولا أن قومي أخرجوني منك ما سكنتُ غيرك) [الترمذي].

وفي الإصابة في تمييز الصحابة لابن حجر: قدم أحد الصحابة مهاجراً إلى المدينة بعد استقرار رسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة فقال له صلى الله عليه وسلم: كيف عهدت مكة؟ قال: والله عهدتها قد أخصب جنابها (أطرافها) وابيضت بطحاؤها (مسيل الوادي فيها) وأعذق إذخرها (صارت فروع لنبات الإذخر). فقال حسبك يا أصير لا تحزنا. وفي رواية: فاغرورقت عيناه- صلى الله عليه وسلم- وقال: (يا أصيل، دع القلوب تقر).

إن الإسلام يعزز في المرء حب الوطن والتعلق به. فحب الوطن من الإيمان والتعلق به دليل نجابة الإنسان.

قال أهل الأدب: "إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر كيف تحننه إلى أوطانه، وتشوقه إلى إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه".

وطني لو شغلت بالخلد عنه نازعتني إليه في الخلد نفسي

شهد الله، لم يغب عن جفوني شخصه ساعة ولم يخلُ حسي

وهذا التعلق بالأوطان لئن كان ظاهراً في الناس كلهم فإنه في الشباب أظهر، لأنهم العاطفة المتقدة والهمة العالية والطموح الكبير والطاقة المحركة، ألم تر أن الذي يدير عجلة الإنتاج ويقلب تربة الأرض ويبني السور ويملأ الجامعات ويعمر بيوت الله ويطبب المرضى في المشافي ويستشهد في ساحة الوغى دفاعاً عن البلاد الغلبة الغالبة فيهم من الشباب لذلك كان واحد من هموم الشاب ومشاغله: كيف أخدم بلدي؟ وللإجابة على هذا السؤال أقول: مما يمكن أن تخدم به بلدك أمران:

أولهما: أن تنجح بالموقع الذي أنت فيه:

فالبلد محتاج جميع أبنائه، محتاج إلى الزارع الماهر والصانع المتقن والتاجر السخي والمعلم الشفوق والموظف الأمين وعالم الدين الورع والسياسي الحكيم والطبيب الرحيم والقاضي العادل والسائق الأديب والجندي القوي والكاتب المنصف والمهندس الخبير والإعلامي الصادق.

البلد محتاج جميع أبنائه أين كانوا وحيث كانوا، وربما اضطر بعض شبابنا للسفر ألا فليعلموا أن بلدهم محتاج إليهم ليعمروه وينتظر عودهم ليعلوه، وهل عمرت الأوطان إلا ببناء الإنسان، وليذكروا أنهم سفراء بلدهم حيث كانوا في هذه الأرض فكونوا سفراء خير تنشرون البر بين الناس وترجعون بخيركم لبلدكم إذ الأقربون أولى بالمعروف.

إن مما يؤذي البلد ويثقل عليه أن يجلس شاب عاطلاً عن العمل والعلم، أو أن يكسل طالب تنفق عليه البلد ما تنفق في سبيل تحصيله العلمي، أو أن يتهرب عامل من مسؤولياته، أو أن يرتشي موظف فيضيع الحقوق ويفوت على الناس مصالحهم، أو أن يخون مؤتمن أو أن يغش موثوق.

إن من أراد أن يخدم بلده عليه أول ما عليه أن ينجح في الموقع الذي هو فيه.

ثانيهما: أن تجمع بين أبناء البلد ولا تفرق، وأن تؤلف ولا تمزق:

في المكتبة الإسلامية كتاب نافع عنوانه "التعريف بمقاصد الشريعة" من تأليف الأخ الدكتور نمر السيد مصطفى أصدرته دار الحديث الشريف والسيرة النبوية في مجمع الشيخ أحمد كفتارو رحمه الله،

يتحدث الكتاب عن جهد العلماء في استقراء آيات القرآن كلها وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم جميعها والمادة الفقهية وعللها ليخرجوا من هذا الاستقراء بالمعاني العامة والأحكام الكلية والأهداف القريبة والبعيدة للتشريع الإسلامي وهو ما يسمى مقاصد الشريعة.

وهذا الأمر على درجة من الخطورة إذ إن لكل قائل مقصداً من قوله ولكل عامل مقصد من عمله ولعله من اليسير على واحدنا أن يقرر مقصد فلان من الناس، ولكن علماء المقاصد في هذا العلم يقررون مقصد المشرع الحكيم –جل جلاله– من التشريع، ولا يتأتى لهم ذلك إلا من ذلك الاستقراء التام مع الافتقار إلى الله تعالى أن يجنبهم الزلل.

ينقل المؤلف عن العلماء أن المقاصد العليا للتشريع الإسلامي أربعة، بمعنى أن جميع آيات القرآن وأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم والمادة الفقهية الشرعية جاءت لتحقق بشكل رئيس أربعة أمور:

المقصد الأول: تحقيق العبودية لله تعالى.

المقصد الثاني: إقامة العدل ومنح الحقوق والحريات.

المقصد الثالث: عمارة الأرض.

المقصد الرابع: الدعوة للائتلاف والاعتصام والمحبة.

والذي ساق للحديث عن مقاصد الشريعة، هذا المقصد الرابع، فالشريعة طافحة بالنصوص التي تحث على الجماعة وتدعو إلى الائتلاف وتمتن أواصر المحبة، وتنهى عن أسباب الفرقة والبغضاء.

فمن أراد أن يقيم شريعة الله في الأرض ويخدم بلده فليجمع بين أبناء البلد ولا يفرق، وليؤلف ولا يمزق، إذ معلوم للجميع أن سياسة (فرق تسد) سياسة الاستعمار القديم في بلاد العرب والمسلمين، وأن (تقسيم المقسم وتجزئة المجزأ) سياسة الاستعمار الحديث.

كونوا جميعا يا بني إذا اعترى خطب ولا تتفرقوا آحادا

تأبى الرماح إذا اجتمعن تكسرا إذا افترقن تكسرت آحادا

بر الوالدين دعوة للتجمع والتأليف بين القلوب.

النفقة على الأبناء دعوة للتجمع والتأليف بين القلوب.

صلة الرحم دعوة للتجمع والتأليف بين القلوب.

رعاية الزوجة والزوج، الإحسان إلى الجوار، العطف على المسكين، مساعدة المحتاج، المشي في حاجة أخيك، إفشاء السلام، الإعانة على البر والتقوى، الإصلاح بين المتخاصمين، السماحة في البيع

والشراء، الهدية، عيادة المريض، إجابة الدعوة، وغيرها كثير لجميعها نصوص تصب في هذا المقصد أن تجمع وتؤلف.

النهي عن الغيبة والنميمة والحسد والحقد، النهي عن قيل وقال وعن إضاعة المال وعن المراء والدال، النهي عن الظلم وعن المماطلة بسداد الدين، وعن الغلظة والفظاظة، وعن الرفث والصخب، والنهي عن أذية الجار وقطيعة الأَرحام، وغيرها كثير لجميعها نصوص تصب في هذا المقصد أن لا تفرق ولا تمزق.

قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: 103]

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «**والذي نفسي بيده لا تدخلون الجنة حتى تؤمنوا ولا تؤمنوا حتى تحابوا أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم، أفشوا السلام بينكم**» [مسلم].

وقال صلى الله عليه وسلم: «**رحم الله عبداً سمحاً إذا باع سمحاً إذا اشترى سمحاً إذا اقتضى سمحاً إذا قضى**». [البخاري].

وبعد أيها الشباب: هذا واحد من همومكم كيف أخدم بلدي؟ وهذا شيء من الجواب عليه.

اللهم اجعلنا سبباً لسوق الخير للبلاد والعباد، وأجر على أيدينا شفاء خلقك وسعادة خلقك مع الراحة. واجعل بلدنا أمنا مطمئناً، والسلامة لنا ولهم.

والحمد لله رب العالمين